تقديم

أصبح من الأمور البديهية أن شقاق فتح وحماس شرخ عميق في جدار الحائط الفلسطيني الذي كانت ترتد على صلابته أعتى السياسات العربية والإسرائيلية ولم يفكر أحد أن عرفات سيكون آخر زعماء فلسطين، كما لن يصدق أحد أن شارون هو آخر ملوك الإمارة الصهيونية.

كما أصبح الكثير من الأمور الأخرى في الساحة الفلسطينية في حكم البديهيات التي لا تحتمل المزيد من الجدل والنقاش، ونخص منها أهمها وهو أن الذي بين فتح وحماس لم يبدأ إلا بعد وفاة عرفات لأنه كان أباً للجميع وقائدًا للجميع مهما كانت أخطاؤه التي يرددها نقاده أو عند التقييم التاريخي له كزعيم لشعب مغتصب في بيئة مخترقة. ومعنى ذلك أن الذي نشأ بين فتح وحماس ظهر عندما تقدمت حماس في المقاومة ونكصت فتح الرسمية عن طريق المقاومة ولاذت بالأوهام السياسية ولاحت لها بساتين التسوية والسلام في جنان إسرائيل. ثم صار الاختلاف خلافاً ثم صراعاً . وعندما فازت حماس في الانتخابات ظنت فتح أنها ستكون قطعاً الفائز بحكم تاريخها، تماماً كما اعتقد السادات أن إطلاق اسم الحزب الوطني على الحزب الحاكم سوف يستعين بالذاكرة

التاريخية لأمجاد حزب مصطفي كامل، ثم زاد عليه صفة الديمقراطي حتى يجرد الآخرين من هذا اللقب، وهي قصة كانت مألوفة في النظم الشيوعية المستبدة المعروفة «بالديمقراطيات الشعبية». وأدركت فتح أنها خسرت الرهان وقبلت بانتخابات حرة تدخلها حماس لأول مرة فكانت النتيجة استفتاء على سياسة فتح وترهلها وفسادها كسائر النظم العربية التي استعصت على أي إصلاح. ومع ذلك عرضت حماس حكومة ائتلافية ولكن فتح رفضت حتى تكون الحكومة حماسية خالصة فتنقض عليها إسرائيل باطمئنان وبالفعل بدأت حرب الإبادة بالحصار والمقاطعة والتجويع خاصة وأن اتفاق المعابر الذي أبرمته إسرائيل مع فتح لتحاصر حماس عقب انسحاب المستوطنين من غزة وقبل الانتخابات التشريعية قد انتهي أجله في نوفمبر ٢٠٠٦ في وقت كانت إسرائيل قد أحرقت لبنان في صيف ذلك العام، فبدأت مشاكل عناصر فتح في غزة بالذات وأدت إلى سيطرة حماس على القطاع حتى تحمي نفسها وتوقف الفلتان الأمني، وتحبط خطة دايتون ويبقي خيار المقاومة قائماً بعد أن أطفئت أنواره في رام الله.

وقد أدى الحسم في غزة إلى انسحاب المراقبين الأوروبيين الذين حضروا المرات القليلة التي فتحت فيها المعابر، وإلى حصار أشمل شارك فيه معبر رفح، وبدأت المشاكل بين السلطة وما أسمته انقلاب غزة، وظاهرت الدول العربية السلطة والرباعية الدولية وإسرائيل الذين ظهروا في معسكر واحد ضد حماس في غزة، ووضعت لغزة شروطًا لرفع الحصار واستئناف الحياة، أولها رحيل حماس وتسليم السلطة «للسلطة الشرعية» رغم أن المجلس التشريعي عصب السلطة غالبيته حماسيون اعتقلتهم إسرائيل دون أي احتجاج من البرلمانات العربية والدولية مثلما اعتقلت وزراء حماس، وثاني هذه الشروط : هي الامتثال للشرعية الدولية، وهي تعني عند «أبومازن» الاعتراف بإسرائيل ولم يكفه أنه معترف بها ومتعاون ضد

حماس معها. ورغم أن هذا الشرط ذريعة مكشوفة ومغلوطة، فقد كانت السلطة وإسرائيل ينسقان أمنياً لاقتلاع حماس من غزة فوقعت المحرقة وسط كل هذه التداعيات. وقد شاركت مصر - ربما دون أن تدري كما نتمنى - في تبرير العدوان الإسرائيلي، حيث امتلأ خطابها الإعلامي والسياسي بأن حماس هي التي رفضت تمديد اتفاق التهدئة في الأسبوع الثالث من نوفمبر ٢٠٠٨ وهي تعلم جيداً أن إسرائيل تعد العدة والتدريب والتخطيط لهذه المحرقة منذ شهور، وأدانت مصر إطلاق الصواريخ مثلما أسماها أبومازن «بالصواريخ العبثية» وهو من أهم مبررات إسرائيل. ثم بدأت مصر بعد المحرقة القيام بدورين هما ما بقي لها في القضية الفلسطينية وهما الوساطة لإطلاق سراح «شاليط» الجندي الإسرائيلي الذي أسرته المقاومة عام ٢٠٠٦ لمقايضته بعشرات الآلاف من الأسري المعتقلين الذين يعذبون حتى الموت في غياهب السجون الإسرائيلية، وإطلاق الحوار الوطني الفلسطيني.

هكذا يتضح أن الصراع بين حماس وفتح وإن بدا صراعاً على السلطة، إلا أنه صراع مدمر ويضع نهاية للقضية، كما أن هذا الصراع تأثر بالبيئة الإقليمية، فالدول العربية في إجمالها تساند فتح لمجرد أن إسرائيل وواشنطن تريدان ذلك جنباً إلى جنب مع واشنطن وإسرائيل والاتحاد الأوروبي الذين يرسلون الأموال والأسلحة للسلطة للقضاء على حماس.

أما حماس فتلقى الدعم السياسي والمالي من كل الشعوب العربية التي بقيت صمام الأمان ضد المشروع الصهيوني، ومع ذلك تتهم حماس بأنها تدعم مادياً من إيران وأنها ذراعها في المنطقة، كما تتهم حماس من جانب الحكومة في مصر بأنها امتداد للإخوان، وفناؤها إضعاف للإخوان الذين ترى الحكومة أنهم المنافس الوحيد له في الساحة السياسية .

السطور التالية تحليل لمحتوى وأبعاد الصراع ومخاطره، ومنه يتضح أن إفلاس المفاوضات بفضل إسرائيل لا يؤدي تلقائياً إلى أولوية المقاومة، ما دامت الإرادة السياسية لبعض النظم العربية المحيطة مسلوبة لصالح إسرائيل والولايات المتحدة، ولن يحل الصراع إلا إذا عرفت مصر نظاماً سياسياً ديمقراطياً، كما لن تستقيم أوضاع العالم العربي كله إلا بظهور هذا النظام في مصر ، فمصر هي البداية والنهاية.

وأخيراً، حتى لو تصالحت فتح وحماس، فسوف تبدأ مرحلة جديدة للمطالبة بالحقوق السياسية الفلسطينية وبلورة بيئة عربية ضد إسرائيل، وهذا هو السبب في مناهضة واشنطن لأي مصالحة بين «الإخوة الأعداء».

إنه صراع بين مشروعين : تصفية القضية وإحياء القضية ، ومن المثير أن يصدر هذا الكتاب وإرادة التصفية العربية قد بلغت ذروتها بقرار لجنة المتابعة العربية تفويض أبو مازن بالمفاوضات المباشرة وعجز أبو مازن عن الإقدام على التصفية وهو مفتوح العينين . الصراع أساسًا بين استكمال المشروع الصهيوني وبين آليات مقاومته .

السفير الدكتور عبدالله الأشعل

الزمالك ـ القاهرة

أغسطس ٢٠١٠